
إسلام مؤنس
توابيت الحجاج
مسرحية
شعرية
دار ليلى
كيان كورب
للنشر والتوزيع

كيان كورب
للنشر والتوزيع والطباعة

دار ليلى

تعريف الشخصيات حسب الظهور

الحجاج بن يوسف الثقفي (**40** - **95** هـ = **660** - **714** م)،
قائد أموي، داهية، سفاك، خطيب. ولد ونشأ في الطائف وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته، ثم ما زال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره.

أمره عبد الملك بقتال عبد الله بن الزبير، فزحف إلى الحجاز بجيش كبير وقتل عبد الله وفرق جموعه، فولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه، فانصرف إلى بغداد فقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين سنة.

* * *

عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي (**2** هـ - **73**هـ)،
صحابي جليل وابن الصحابي الزبير بن العوام، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، استخلفه الخليفة عثمان بن عفان على داره فكان يقاتل الجند الذين دخلوا يقتلون عثمان حتى أصيب، وهو خليفة من خلفاء المسلمين ولي الخلافة بعد يزيد بن معاوية تسع سنين حتى قُتل في الحرم المكي سنة **73** هـ.

سعيد بن جبير الأسدي (**46**-**95** هـ) تابعي حبشي الأصل، كان تقياً وعالماً بالدين درس العلم عن عبد الله بن عباس ، سكن الكوفة ونشر العِلم فيها وكان من علماء التابعين، فأصبح إماماً ومعلماً لأهلها، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي بسبب خروجه مع عبد الرحمن بن الأشعث في ثورته على بني أمية.

(1)
تَابُوتُ الحُلْمْ

(الحجاج نائم في خيمته المنصوبة على تلة في مكة ترى الكعبة من بعيد... يرى في منامه رجلا يشبهه ولكنه طاعن في العمر ينشد)

يُباركُ فينا اللهُ جميعًا

يُباركُ فينا اللهُ جميعًا

حين نُفَتشُ في الأرجاءْ

نَعْلو عن أطماعِ الدُّنيا

والشهوة والحكمْ

نَتَمتَّعُ بالكون رفيقًا حين يُسلِمُنا بكْرَ الأشياء

نَراهُ بكل بلاد الله كثغر متبسم

نَراهُ وقدْ أصبحَ مغسولًا

في ذاتِ صباحٍ بالمسكِ الدريْ

فلا يَتبَتَّلُ قلبٌ

إلا والروح تسافرُ في المَلكوتِ المُظْلمْ

سابحة كشعاعٍ مُشْتعلٍ

في جوفِ المشكاة الأولى

في الأفق الأزلي

تَتَّبِعُ الأخرى في الآن الدوني
فتَبْقَى ساكنة من لهفة تلك الرحلة
مغْلقة الأسرار علَى سر محكمْ
يسْتعْصي فيه الفضُّ علينا
يُسْتنطقُ فيه العمر الأبكمْ
يتعلمْ
كيف يُصَمْ
حين تَضيعُ النفسْ
ويعيقُ الخطوَ المتقدِّمْ
أي محاولة للعودة من تلكَ السفرة
عندَ زوالِ الخيطِ الأبيضْ
وقدوم الأفقعِ حمرة
يسْتَبِقُ الناسُ إلى كأس الخمرة
يسْتَبِقُ الناسُ إلى كأس الخمرة
(يستيقظ الحجاج وكأنه قام لساعته من على نهر من الخمر المسكر)
أمَا آن للأحلام أنْ تَدَعْ
تململْ
تبادلْ رغمَ أنفي عمق نومِي
بالغريبِ من البدعْ

أما آن للحجاج إنْ تأمَّر أنْ يطاعْ

سألفُّ نَفْسي بالعَصا

كي لا يلين الطبعْ

همَّت الأمصارُ تُفلِتُ أمرها

فإذا بفِتْنتِها على عَيني تُصْنعْ

يسْتَبدُّ أولُو التجارة في الشراء

فلَن يرَوا للآن فائدة ببيعْ

سَأزُفُّ للنفسِ العفية رزقَها

حتى أراها تسْتزيد بلا شبعْ

سأزف للنفسِ الشقية نارَها

حتى أرَى اسمي

على عملة الخوفِ يُطبعْ

فمثلي تُمسِكُ الدنيا يَديه

فما لها خِيرة إلا لِتَخْضعْ

يتيه بخمرة العلياءِ أنصافُ العلا

أمَّا أنا منْ بعدِها بالرشدِ أصْدعْ

أمَّا أنا

من بَعدِها بالرشدِ أصْدعْ

(يدخل طارق أحد مساعديه فزعا إذ سمع صوت الحجاج وهو يحدث نفسه)

طارق: مولاي

الحجاج: أما أنا من بعدها بالرشْدِ أصْدعْ

طارق: مولاي

هل نفسُ ذاتِ الحلمِ ثانية؟

مذ قَدِمْنا من بلادِ الشامْ

الحجاج: نفسُ ذاتِ الحلمْ

كل ليلة

يسْحَبون قدمَي سحْبًا

يخْمدوني عامدينْ

في هواجس الأرض السحيقة

مثلما تغْشَى مذاهبُ التدجيلِ أفهامَ الحقيقة

يُمَزقوني مُدَّعين الصدقْ

ألف ألفٍ كالقبائل تملْأ الصحراءَ

من أرض الحجازِ إلى المدينة

حتى بلاد الشام والكوفة

يقلِبون على الخريطة ما حلُمْنا

شمال أفريقيا مكان الشرق

فراتُ مصرَ يُغِيرُ مُجْترئًا على نيلِ العراقْ

أجِدُّ في الهروبِ بعْدما اخْتطفْتُ منْهم – دون أنْ يَدْرُوا – الخريطة

عطشانُ ألهثُ أقتربْ

هذيان تعَبي لا يطاقْ

حتى يجيء علي شيخٌ في تَمهُّلْ

يرُدُّني عن بئِر ماء

قد تلوث بالدماءْ

واغْترفتُ مِنه شِرْبًا دون حيْطهْ

فأردُّهُ ويردُّنِي

فأظلُّ أمدُدُ باتجاه البئر نفسِي

ويظلُّ يَفعلْ

ويظلُّ يفعلْ

طارق: هَون عليكْ

أضغاثُ أحلام تُعاودُنا جميعًا

في نفسِ أقوانا تعيثُ وتعْتَمِلْ

الحجاج: قلْ لي

أكل الجندُ جاهزونْ؟

طارق: سبعة أشهرٍ يتحكمون بكل مخرجْ

يتَحَيَّنون إشارتَكْ

كي يخرجُوا منْ كل فجْ

ويحكمون الناس في ضيق الحصارْ

الحجاج: الموت قرار

كالعَطايا حين تأتي للمُراهِنِ بغتة دون انتظارْ

طارق: والله لا أدري

من أين جاءَ ابن الزبير بكلٍّ هذا

متخندقٌ في غير خندقْ

متحصنٌ في غير حصنْ

الحجاج: أتمدحُه أمامِي

طارق: معْذرة

الحجاج: وليكنْ

ذلك الشيخ العنيدْ

سأمَزقنَّ جِلدَ وجهِهِ

كي يكون عبرة

الغيظُ أمكنَ حدَّهُ منِّي وفاضِْ

القيظُ أجْهدني وزادْ

اليوم لنْ يمرْ هكذا إلا

وعبد الله مصلوب على أبواب مكة

ولو احتمَى مِنِّي بألفِ كعبة

ولو اسْتجارَ ابنُ الزبيرِ بألف كعبة

* * *

(2)
تَابُوتُ الحَصَادْ

(صديق عبد الله بن الزبير يقف قريبا منه وهو يصلي قد سلم وظل جالسا ويكلمه بصوت خفيض)

فإمَّا نموتُ وإمَّا نموتُ

فأي المَاتين تختارْ

أي الخَيارين يُفْنِيكْ

أي الفناءين يَغْتالُ حُلْمَكْ

أي اغتيال سيرضِي وجودكْ

أي وجودٍ بشِقَّي رحَى

سوف يُلْبسُ حلْمَك تاجَ الخلودْ

فاخلعْ الآن نْعْلَيْكَ واختَرْ

بين الركوعِ وبين السجودْ

ليس دومًا خَيارُ الوجودِ خيارك

للمَوْتِ وجْهان وجْهٌ يُقَادُ

ووجْهٌ يقودْ

(يسمعه عبد الله ويلتفت إليه هادئا متبسما)

في حضْرة الضَميرْ

فِي حضْرة الخُطى فِي الصَهْدِ والهَجِيرْ

فِي لمسة النَبي

ساعة التماس بيعتِهْ

فِي الزودِ عنْ سلامِ كعبتِهْ

فِي العمرِ حين يمرُّ علَى ديارِ المؤمنينْ

يشْعلُ شَمعة الصلوات

يفرحُ بابتهالاتِ التَهَجُّدِ

فِي قلوبِ الطيبينْ

فِي حضْرة الحقِّ الكسيرْ

والمُجرياتُ القاهِراتُ العادِياتُ

تَعْتَلي أسوارَ مكة

تُجَنِّبُ التنزيلَ

والوَحْي المنيرْ

فِي حضرة النفسِ الأخيرْ

يسْتوي فِي ظاهر الأشياء

دائمًا نفسُ المصيرْ

شَتان فِي الإنشاءْ

يتخَبَطُ الضريرْ

حين يَخطو خُطْوَتَهْ

ويُفْلحُ البصيرْ

الصديق :

الجندُ يضْربون بيتَ اللهِ بالحجارة

السيوفُ مُسْفِراتٌ كالنجوم

الزادُ مثلُ الماءِ في البئر الفقير

النهاية ترْتقي لسَطْرِها الأخيرْ

ألمْ يَكن؟

– عفوا من لحظة الشكوكِ

ورهقة الظَّنْ

وانفعالِي – ألمْ يكُنْ في الأفق أي بادرة لحلٍّ قدْ يُجيرْ

بيتَ اللهْ

والدماءْ

والناسَ

والقلوبَ المشفقاتْ

والدروبَ المُهْلَكاتْ

والسنين الذاهِبَاتْ

عصَبيَّاتٌ عصيباتْ

كنَّا قدْ تركْناها طويلاً

خلفَ ظَهْرِنا في الجاهلية والليالي المُوسفاتْ

الزبير: لمْ يَكُنْ بدْ

كنت أحسَبُنِي استطعتُ لمْلَمَة الحجازِ

بأيامي القليلة

لكن كَهْلَ الشامِ يأبَى أن يُفرِّطْ

لن يتركَ الأيام تسْحَبُ نفسَها

منْ تحتِ قدمَيه الثقِيلة

لمْ نكنْ يومًا قبيلة

كنَّا قبائل شتَّى

جَمَعَتنا راية التوحيدْ

فرَّقَتْنا فِتنة الحكمِ المُرصَّعِ بالأمانِي الطيباتْ

تَركْنا ما تَركْنا

فَقدْنا مَنْ فَقدْنا

حينَما تَسَمَّرتْ أنامِلُ الجنُون قابضاتْ

على السيوفْ

تجهز العتادَ والعددْ

لنصرة القَبيلة

المنطقُ الضعيفْ

المنطقُ السخيفْ

يعود آمِنًا بعدَ انزوائه هَزيلْ

الصديق:

يعود قابضًا بمنتهى الإصرار

أن يُبَدِّلَ التَأويلْ

ويَلْوي بين مَطْمَعِهِ الهدَى

في مُقْتَضَى التنزيلْ

ويغْوي بالعَطايا

يَغُرُّ الناسَ بالهزيلْ

والدُّنيا مهما تعالَى زيفُها وازَّيَنَتْ

متاعها قليلْ

تُصيبُ مَنْ تصيبْ

وتحفرُ فوقَ جِلدِ الطامعين اسمَها

حتَّى تدسَّ سمَها في كلِّ جلدْ

الزبير:

تَنازَلَ السيفُ الحقُودُ عن أمَانِهِ

في لفتة الطمعْ

وذابَ في الجَسدْ

تراكمَ المواتُ في حدائقِ الزَبَدْ

الصديق: أحد أحَدٌ

خُلِقَ الجَميعُ في كبدْ

أَلْفًا وتدْ
دُقَّتْ بهَاماتِ الذين قدْ اشْتَهوا يومًا تفاصيلَ الجَلدْ
الزبير: الضياءُ تحتَ مِحْنة الإصرار يُجْهَدْ
تَعَمَّدَ اخْتِيارَ أنْ يَميلَ جانبًا
وسالَ في انْحِناءِ مَنْ تَكَبَّدَ الرضوخَ آخر المَسيرْ
بَعدما تَصَبَّبَتْ جَبينُهُ الحَياءْ
ريْثما يُجِدُّ في اخْتِفائه الأخيرْ
الصديق: ماكنَّا يُضِلُّه الذين لا يرونْ
ويقْتَفُون إثرَهُ في لحظة الجنونْ
عِندما يُحَاولونْ
لكنَّهُ في الأصْلِ لا يكُونْ
الزبير: كيف يَبْتغون كِسْرة الأمَانْ
بينما تَمُوتُ في القُلوبِ رغْبَة الحياة
واحتمال نارِ حَمْلِها
وقسوة الطريقْ
وارْتدادُ كلِّ بسمة ضَئيلة علَى وجُوهِ مَنْ تَبَسَّمُوا
فتَسْتَحِيلُ نَبضة الرَجَا
في قَسْوة انْكِسَارها
كَجِذْعِ نَخْلة

مُرَادها الصفيرِ لَحظة انْتِهاكِها
وساعة اعْتِراضِها لركلة الطغاة
الصديق:
زمَانُنَا يُقيمُ بعدَ خُطْوة
– مِنَ احتراق صَبْرِنا علَى الخطى – صلاة
فكيْفَ قَدْ يَضِلُّ مَنْ تَرَبَّصَ الضياءَ طولَ عُمْرِهِ
واسْتَمَدَّ صَبرَهُ
مِن هدْأَة الأنَاة
الصديق: يُقَامُ معبدُ على رُكامِ صَمْتِنا
فيزأرُ الرِعَاعْ
والرعية بالثناءْ
بعدَ كلِّ ركْلَة
ويسْترون غضْبة السكوتْ
كيف لا يتبرءون من عزيزهِمْ
كيف بالثناء يلهجونْ
فيخبرون ربَّهم فرعونَ
عنْ مَدى شُحُوبهمْ
إن أخَّر اخْتيارَهمْ
في ثُلَّة المشاة

من يدفع الدِّياتَ في القتلَى

من يدفع الدِّياتَ في القتلَى

الزبير:

هم يحسبون أنَّهم لا يدفعونْ

هم واهمون ويحسبون الله قد يغير ما بقومْ

بفضْلِ أدعية القنوتْ

الأولون يعْتبون في مِضمارِ فتْنَتِهِمْ

على السكوتْ

والآخرون

تَقَلَّبوا بين اخْتيارِ ظالمٍ يعيشْ

أو اخْتيار ظالمٍ يموتْ

* * *

(3)
تَابُوتُ الوَهْمْ

الحجاج بعد انتصاره على عبد الله بن الزبير بن العوام وهو في خيمته منتشيا بإزالته أول عثرة استعصت على بني أمية لعشر سنين

الحجاج:

مَرحَى أيها الحجاجُ مَرحَى

أيها الثقفي مرحَى

كل شيءٍ دان لكْ

الأرضُ

و الناسُ

الخليفة

الكتائبُ

كلُّها ملكُكْ

حتَّى الرقابِ الآن حِلٌّ بأمركْ

بالحقْ

بالحقْ

بالحقْ

هل يعرفُ الناسُ الحقيقة؟

هل يدركُ الدهماءُ
كيف أُدِيرُ مملكة الخليفة؟
هل يصبرُ الناسُ المعلقُ رزقهم في الأمنْ
أن أسْلُكَ الطرقَ الضعيفة
هل يرضى عني الله
إنْ أنا خُنتْ عهدي للخليفة؟
يحْتاجُ مِثلي ذلك الوطنُ العتيدْ
أبْني بجَهدٍ تحتَ كرسي الخليفة
ألفَ صرحْ
أسوسُ الجندْ
يصلحُ منْ صَلحْ
و الرعية هانِئون يحصِّلون الربحْ
بدون وجلٍ يعتريني مطلقاً
و بدون خيفة
بدون سَفْسَطَة سَخيفة
عن حقوق الناسْ
حرية الناسْ
كرامة الناسْ
مهما توارَى الحقُّ في الطرقِ العنيفة

مهما تَغَلَّفَ وجهُهُ بالصهدْ

بالقسْوة

بمرارة الفقدْ

بحرارة العندْ

بارتحالِ الجندْ

من بلدٍ هنا إلى بلدْ

هي أنفسٌ لا تعرفُ الحقَّ المساقَ

على حروفٍ تحْتَدُ

بين السيوفِ على البقاءْ

و لنْ تعْرفهُ أبدًا

و لوْ طال الأمدْ

لنْ يعْرِفوا شيئًا

ولوْ طال الأمدْ

يدخل طارق عليه في غضبة يحاول إخفاءها

قائلا: مولاي لو أذنت لي

الحجاج: ماذا تريد؟

أكاد أشْتَمُّ الملامة في ثيابكْ

و أرَى بعقلِي ما قصدتْ

كأنك قلتْ

وكأنَّني سَمعتْ

طارق: مولَاي

لولا يضيقُ علي صدرُكَ

لاسْتَقلتْ

الحجاج: وتَتْركُني

لماذا؟

حَزنتَ مِن أجلِ الزبيرْ

وَجِلْت

من مجيء أسماء العجوزْ

ذاتِ النطاقين – عفوا –

خِفتْ

منْ دعاءِ بِنتِ الشيخْ

طارق: القتل يا مولاي

سوف يصبح بيننا دَيْنْ

دِين في الكتابْ

و دَين في الرقابْ

أليس القتل ديْن؟

الحجاج: السيف دين

فرقٌ كبير بين بيْن

طارق: هل القتلُ قُربَى للذي فطرَ السماءْ؟

هل يَرتضي ربِّي دماءَ الصالحين؟

خَشيتُ يا مولاي لو نكون ظالمينْ

ومعتدينْ

أو نكون قد قطَعنا حبل شِدَّهْ

قبل أن نمدد لهم حبالَ لينْ

الحجاج: الظلم العدل الشدة

اللين الحلم الحدة

الموت القتل

الطاعة والرده

لا تستطيعُ الوصفَ أيها استعملتْ

كلها الأفعالُ بنتُ الوقتْ

يا تُرَى لوْ كان يَسْبقُني الزبيرْ

أما كان يَفعلُ ما فَعلتْ؟بضع ضرباتٍ بسيفٍ

قدْ تُحَولُ مُجْريات الأمر

فأصيرُ في نفسِ المكانْ

علَى نفسِ جذعِ النخلِ مصلوبًا

أكان يَبْكينِي الزمانُ كما بَكَيْتَ الآن

أكُنتَ تسرعُ هكذا

و تَجُرُّ أذيالَ التباكي يا خرفْ

ليس عندي ربعُ وقتٍ

كي أمارسَ ما تمارسُ

من ترفْ

دعْني فباقٍ في الطريقِ

تباكِيًا أعتَى سَيرْهقُ نفسَك المشْبُوبَة بالملامْ

أولُ الغيثِ المعينُ

لِمَن في مثل حالِي

ليْس قطرة

بل رقاب قد تَنَحَّتْ من طريقِي

دونَما أدنى أسفْ

دونَما أدنى أسفْ

***

(4)
تابُوتُ النَدَمْ

(جندي من جنود الحجاج قادم من حربه ضد عبد الله بن الزبير مقبل على أبيه)

الأب: ولدي المغامرُ والقوي

الابن: رجَعْتُ تَوِّي من بلادِ الله

قلْ ولدِي الشقيْ

بيتُ اللهِ أُهْرِقَتُ الدماءُ بأَرْضِهِ أبتاهْ

تَقاتلَ الأبناءُ في صحنِ الهُدى

حلَّت دماءُ الأتقياءِ محلَّ ماء البئرِ فاختلطتْ نداءاتُ المصلين التقاة فلا

تُفَرقُ بين تكبيرِ الصلاة وبين تكبيرِ النهايات الأُخرْ

قُتِلَ التقيْ

الأب: الموجُ يا ولدي عتيْ

فاصطبرْ

الابن: صَلبوه يا أبتي

الأب: مَنْ؟

الابن: عبد الله

على خشبٍ بمدخلِ مكة... البلد الحرامْ

فصلوه عن رأسِهْ

لطالما سجدَ ابتغاءَ مرضاة الإلهِ

وقام

أيكون هذا منتهاهْ

الأب: الموت يا ولدي نجاة

الابن: بعثوا برأس ابنِ الزبيرِ إلى بلادِ الشامْ

بعدما سَكنت سنين في جوار البيتْ

كي تُلقى أخيرًا تحتَ ظلِّ العرشْ

بكيتْ

و اسْتَحْييتُ يا أبتاه إكمال البكاءْ

جَبنتْ

واريْتُ النحيبَ بمقلتَيْ

داريْتُ نفسي في الخفاءْ

الأب: الكرهُ يا ولدي جفاءْ

الحربُ يا ولدي كذلكْ

لا يُريحُ غَليلَها سيلُ الدماءْ

الفتنة الشعواءُ تُلْقِي ظِلَّها وظَليلها

في كلِّ ركن في السماءْ

هَون عليكً

الابن: كيف السبيلُ الآن يا أبتي

و يداي غُرِسَتْ في دماءِ الصالحينْ

الأب: الصالحونْ؟

مِنْ أين جِئْتَ بمثلِ هذا؟

الصالحون يبايعون

لا يَنْكُثون العهدْ

الابن: أي عهدٍ يا أبي؟

أنتَ تعرفُ مثلَ كلِّ الناسِ أنَّ العرشَ مخطوفٌ بليْلْ

كلُّ شخصٍ يَجتهدْ

الأب: لا اجتهادَ بمثلِ هَذا

قد يَضرُّ الناسُ حينًا أمنَهم وأمانَهمْ

النارُ تأكلُ مَنْ يُفكرُ في الحطبْ

النار تأكلُ ما تبقّى مِنْ عظامِ الخوفِ

في جوفِ اللهبْ

الابن: أوَ دينُنَا يرضَى بهذا؟

الأب: السياسة يا بني تقيمُ دينْ

الابن: هل القتلُ دينْ؟

هل الصلبُ دينْ؟

الرعبُ يُعْمِلُ نَصْلَهُ في كلِّ قلبٍ

في صدورِ الخائفينْ

الأب: إياك يا ولدي حديثًا مِثل هذا
شُرْطَة الحجاج لا ترضَى بهذا
أنت يا ولدي صبيْ
لا تعي للآن ألعاب السياسة
الابن: حِرْتُ يا أبتي
القتلُ يُصْبحُ مِنْ أساليب الكياسة
الأب: سبعة أَشْهرٍ يَتَحَصَّنون يا ولدي ببيتِ اللهْ
الصَبرُ يَنفدُ عند أَجنادِ الخليفة
أَتفكرُ الحجاجَ يصبرُ كلَّ ذاكْ
الابن: و لِمَ تَعَجَّلْ
الصبرُ شهر بعدَ شهرٍ لا يضرْ
كَمْ صَبَرْنا نَفْتحُ البلدان؟
نُمْهلُ أهْلَها
نُعطي للأعَادي مهلة
أَليسَ أَهلُونا بهذا هم أحقْ
نفتح الأبواب.. نُفْسِحُ لحظة للقلبِ أن يَرِقْ
نَسمحُ للشهيق يدُسُّ في الأنفاسِ ذكرْ
فيمرُّ إمهالُ القدرْ
الأب: يَفتحُ الإمهالُ أبوابَ الجحيمْ

والقليلُ مدكرْ

الناسُ يَنتظرون بفَارِغِ صبرهمْ

مَنْ يُفَرِّقهم

و يشعلُ نارَهمْ

فَكأنَّما في الشَرِّ قَهوتُهم

و زادُ طريقِهم

و أبواب النعيمْ

قمْ يا بني وصلِّ للهِ الكريمْ

و استعذْ مِن خاطِراتِكَ والرجيمْ

الابن: أُصَلِّي عليهم ثمَّ أَصْلَى نارَ ذَنْبي

كلَّ يوم أصْطَلِي

مِنْ رؤية الحيواتِ تَرْجِعُ مِنْ مقابرِهَا

فتَضْرِبُنِي بسِجيلٍ عَصِيْ

أَغْسل بالملامة والبُكا كِلتا يَدَي

مِنَ الدماءِ فلا تؤخرُ سَوأة العارِ المقيمْ

أتوضأ الموتَ السقيمْ

لِأُصَلِّي يوميًّا علَى.

***

(5)
تَابُوتُ الفَقْدْ

(رجل يبدو عليه القوة وفقر الحال مجتمعين يقف أمام بيته)

الرجل: من يكفلُ بنتي ذات الستْ

من يكفلُ بنتي ذات الستْ

قبل ذهابي للحرب المرهقْ

قبل مروري في الدرب المغلقْ

إذ فاجأني جندي الحجاج بطلبي لأذود عن ال...

الدين؟

الدنيا؟

الأهل؟

القوم؟

العرش؟

ذكرني يا هذا

لأذودَ عن الحقْ

كي أرفعَ رايات الحق

تذكرت

كي أرفعَ رايات الحقْ

رايات الحقْ؟
بالكاد ألُم القدرة كي أرفعَ بالخبزِ يديَّ إلى فم البنتْ
لبضعة أيام متصلة
ينقطعُ الرزقْ
أحد الجيران يستوقفه كلام الرجل فيرد عليه ناصحا :
انهبْ من آنك لا تُبطئْ
قدْ جاء الرزقْ
سيعينُك جندُ الحجاج بمالْ
وستأكلُ أحسن مما تأكلْ
وستلبسُ قطنًا وإستبرقْ
وستخلعُ ثوبَ الكتان الأخرقْ
وسترجعُ أحسن مما رُحتْ
الرجل: سأرجع أحسن إن عُدتْ
الجار: سوداوي النظرة أنتْ
ينتصرُ الحجاجُ بكلِ معاركِه ويفوزْ
فلا تتعنتْ
الرجل: لا فائزَ في الحربْ
الكل يقامرُ بمصيرِ الكلْ
ميزانٌ صعبْ

حين تجوز الكيْلَة في الميزانِ الأخرقْ
كي تزنَ العائدَ من صنعِ الكربْ
في كأس دائرة بالموتِ علَى كلٍّ الدورْ
في كفة
والأخرى لا تحْوي غيرَ كتابِ الربْ
يتنازعُ فيه اثنان
يقتتلانْ
بين الدفة والدفة
فيقول الأول منهما مجترئًا
هذا ما أنزلْ
ويقول الثاني منهما
هذا ما أنزلْ
الجار: فلماذا تسألْ
وتَتُوه على دربٍ
لا ردًّا منه ولا مأملْ
الناس تروحْ
والناس تجيءْ
لن يَبقى في الأيام المقبلة
طريد كي ينجوَ إلا وتخفًى

الرجل: لا أصبو إلا أن أشفَى
أن أدري
أن أفهم
ثلاثة أرباعِ الموتِ يُسَنُّ على نصلٍ أبكمْ
والربعُ جوابٌ ألقاه النافخُ للكيرْ
في بئرِ النار المتأصلْ
فتمنَّى قبل قليلٍ حتْفهْ
الجار: مهما تسترسلْ لا تأملْ في الوصلْ
الرجل: أتظنُّ الموتَ سيخبرني
قبل اسْتنفادي آخرَ نفس متواصلْ
هل مِتُّ على حقٍّ أم مِتُّ على باطلْ
الموتُ يعاجلْ
يستعجلُ إنفاذَ البيعِ من الأنفسْ
يختصرُ الحيرة في قِصْرِ اللحظة
يختصرُ اللحظة كي تكتنزَ العمرْ
يمرُّ العمرُ كدرويش كهلْ
يَلُف الدرويشُ الطيبُ في دورتِهِ ثانية
يتفقد نفسَ وجوه الأهلْ
فيضِلْ

الجار: الناسُ تقاتل من أولِ يومٍ
قابيل تجرأ فيه على القتلْ
الرجل: هل قال اللهُ تعالَى كونوا مثلَ القاتلِ
حين تُسَوِّلُ نفسُ النفسْ
للفاعلِ فعلَ الفعلْ
يسْمَعُ تكبيراتُ اللهِ تحلُّ محلَّ الرمحْ
ومحلَّ السيفْ
ومحلَّ الكرهْ
ومحلَّ الصهدِ المتبقي في أصل الرملْ
أتكبيرات اللهِ ورحمتُهُ تتبدَّى أبدًا من قلبِ الغِلْ؟
أتكبيراتُ اللهِ تحاصِرُنا بالجمرِ الناشبِ في لحمِ الألسنِ غضبتهُ؟
أتكبيراتُ اللهِ كعزرائيلْ؟
أتكبيراتُ اللهِ تصيرُ الحدَّ الفاصلَ بين اثنين؟
أن تصبحَ قاتلْ
أو تصبح في التوِّ قتيلْ
تكبيرات الله تنازل عنها الناسْ
بدلًا من فيضِ الرحمة والإجلالْ
في آيات الترتيلْ
تكبيراتُ اللهِ الآن تغادرُ أفواهَ الناسِ على هيئة سجيلْ

فيفيض الحقْ

على جنبي النهرِ الدمويْ

يشربُهُ الكهلُ الأمويْ

يُسْكِرُنا المَاءُ المغلي

عن نظرة إنصافٍ نُلقيها

في عين السارقِ والمسروقْ

ونَزَف البشرَى للأخيارِ المجبورينْ

يُعتقُ من كانت يدهُ مسلمة طيبة هادئة طائعة بين يدي السارقْ

وخنجره مغمود في صدرِ المسروقْ

يُعتقُ من كان يداهُ تُغمِّي الصورة عن عينيهْ

لا يعرفُ أيهما الصادقْ

لكن الخِنجرَ ما زال سَكِينًا في قلبِ المسروقْ

خِنجرُه ما زال سَكِينًا

في قلب المسروقْ

الخنجرُ سيظلُ تميمة أيام الحمقَى في الوطنِ المسحوقْ

***

(6)
تَابُوتُ الأسئلة

(يجلس أحدهم منزعجا مما يحدث في الأمصار يحدِّث صاحبه الذي يضع يديه على خديه غير مبال)

الأول: أرأيت؟

كيف صار الحال فينا؟

أسمعت؟

ما آلت له الأمصار؟

كل يوم نفقد الأطهار

كل يوم يمسك الأشرار بالدَّفة

بزمامِ الأمور

كل يومٍ يحكمُ الأمراءُ قبضتهمْ

يتحكمون علَى هوَى من يحكمونْ

إلَى متَى؟

ضاع أمن الناس

ضاع أمن الناس

الجبنُ يأكلُ ما تبقَّى من رحيقِ حياتهمْ

مثل الدبابيرِ الفتية

الناسُ ما عادت غبية
يعرفون حقوقهم في العيشْ
يُدْركون كرامة النفسِ الغنية
الثاني: لا تحدثنَّ عن الناس كثيرا
الناسُ دومًا يفرحون بطاغية
إنْ كان حقًّا طاغية
الناسُ دومًا يفرحون بمَن يدسُّ الخبزَ
في أفواههمْ
نظيرَ شراءِ صمتِهمْ
دومًا يُقبلون على القوي
لقاءَ حفظِ أمنِهمْ
هي كيلة
لا أشكُّ أنها من ألفِ سنة رابحة
الأول: لا أفهمُكْ
أو تَدَّعِي علنًا
بحكمة من يبيعُ قرارَه..
ببعضِ كِسراتٍ من الخبزِ الشحيحْ
أو يربحُ الناسُ المقايضةَ اللعينة
بابتياع الخبزْ

لقاءَ مبهمة المديحْ

الثاني: ومال الناس إنْ رهَنوا حياة

في نظيرِ سلامة

من شرٍّ هذا إنْ دعا

أو شرِّ ذاك إن ادَّعى

الأول: الساكتُ المسكين عن حقٍ يراه

هو مثلُ شيطانٍ لعينْ

أخرسْ

أهانَ حقَّ غيرِه

وحقُّه إنْ جاء يومًا

سوف يترُكُ أخذَهُ

ويستهينْ

الثاني: أوكلُّ الناسِ مثلُك يا رجلْ

اتركْ لهم في الحيرة الظلماءِ نصفَ براحْ

اتركْ لهم أنْ يخْرُجوا إلى الصباحْ

غيرَ مكترثينْ

وغير عابئين بلُجَّة الملكِ الكهينْ

الأول: عن أي صبحٍ تقصدْ

هل ذلك الصبحُ المددْ

خائفًا متوترًا

إنْ كان أبدى ليلة غضب

كلامًا قدْ تسلَّلَ دونما يحتاطْ

فتَسَمْعَتهُ الجند و الجدرانْ

لاكَتْهُ الجنودُ إلى الجنودْ

فتعاظمَ المكنونُ

في بهوِ البلاطْ

الثاني: لا تهولْ

لا يأخذون الناسَ بالشبهة

أعرف جيدًا من يأخذون بما استحقْ

وكيف يجهزون هذا الأمر

الأول: وأخوك قيسْ

هلْ كان حقًّا خارجيْ؟

هل كان يُضمرُ أي شرْ؟

ألمْ يأتِ الجنودُ ألم يَأخُذوه بمحضِ شبهة؟

الثاني: لا أدري

ماذا عسَاه يكون قد خبَّأْ؟

الأول: هكذا دأب العبيد

يسترون الجبنَ في صندوقِ حيرتِهمْ

الثاني: اسكتْ يا رجل

في الحيرة العمياء أرض للنجاة

كيف تحْكُمُ هكذا

بغير علمٍ في الحياة

أو تدَّعِي نورَ النبوة؟

ليس بعد الأنبياءِ

سوى بحورٍ للمتاهة والدجلْ

الكلُّ يُمْسك شمعة الحق المهيبْ

دونَما أدنى خجلْ

ما أهون الحق المعلق في رقابِ الأبرياء

الفتنة العمياءُ

سارية... كالنارِ في الهشيمْ

لن تُبقي في الضلوعِ لوعة

ولنْ تَذَرْ

ما أهون النورَ الذي يحتاطُ من ريحِ الظلامِ بشمعة

في الليلِ تَقْفَهِرْ

ما أهون الحق

المبعثر في الدروبِ علَى لسانِ المدعينْ

(قرعٌ شديدٌ على الباب تستشعرُ ما بصاحبه من غيظٍ وحدَّة)

الأول: مهلًا يا رجلْ

ما بك؟

الثالث: يا قومْ

ما لَكم في نفسِ ذاتِ السيرة

كلَّ ليلة

مثلَ كلِّ ليلة

الأول: ماذا قصدتْ

الثالث: الناسُ مُأتَمنون على الكثيرْ

حيواتِهمْ

أحلامهمْ

حتَّى أمنهم ومصيرِهمْ

يحفظون ذلك بالتعقلْ

يُفَرِّطُون تماديًا في الغي

فلنْ يلومُوا غيرَ أنفسهمْ

ويَنْدمون لو تهاونوا

حين لا يُجدي الندمْ

الأول: الآن تتهم الجميعَ لكي تبرئَ من يغافلنا ليسرق روحنا

الثالث: قصدت من؟

الأول: من غيرِه الحجاجْ

الثالث: ما له الحجاجْ؟

هو يَحفظ القرآنْ

هو يَجمعُ الأمصارَ عودًا جنب عودْ

هو يفتحُ البلدانَ للدين الجديدْ

هو يحرسُ الملكَ الكبيرَ من الضياعْ

هو يجلد الأشرارْ

من يُضْمرون الشرَ داخل فعلهم

دعْوى التفرقِ والخروجِ علَى الخليفة

النيلُ من شرف الخليفة

الأول مقاطعا: من كان مثلُك لا يريدُ سوى الخداعْ

ألا تمل من الدعوى السخيفة

لا تطالبْنِي اقتناعْ

هراءٌ ما تقولْ

هكذا كلُّ الذين يغَلفون أطماعَ التجارة والوصولْ

الثاني: نصفُ مهلكة الرعية في السؤالْ

ماذا كَسَبنا من بحورِ الأسئلة؟

غيرَ الحبال الدائبة

لا شدَّت ظهورَ الناس

ولا تركَت ظهورًا سائبة

الأول: أراك أغفلت البقية في الهلاكْ

الثاني: نصفها الثاني الجدالْ

هل عرفِنا من علَى حقٍّ ومن لبسَ الخبالْ؟

هل سنعرفْ؟

هل يعرِفُ الأمواتُ ماذا خلَّفُوا؟

هل تَضْمنون إكمال الطريق؟

حتَّى تفهمونْ

الأول: كيف يختصرُ الطغاة مرارة الفقدِ اللعينْ؟

في جملتينْ

نحن أعلمُ بالطريقْ

لا تعرفون كيف يُجْبرنا الطريقْ

الثالث: كيف يُخْتصرُ النضالُ الحقْ

في جمعِ الرجالِ على ادعاءٍ لا يليقْ

ثم نَبكي ما يُراقُ علَى الطريقْ

الثاني: أولم يكنْ حقًّا علينا؟

ترْكَنا تلك المزايدة الرخيصة

الجرحُ متسع عميقْ

كل يوم من هنا مرَّت جنازة

في كم مِنَ الأحبابِ

فاجأَنا الموات على حين غِرة

مِن هؤلاء مرة

مِن هؤلاء مرة

فلا يطيبُ للذكرَى عزاءْ

لن تنتهي تلك الدوائر والمراثِي

حتَّى يملَّ الناسْ

حتَّى يملَّ الموتُ من بغضائهم

ويَملُّهم حتى الرثاء

* * *

(7)
تَابُوتُ النُّورْ

(لافتة منقوش عليها بكتابة زاهية سجن الإمارة، يجلس سعيد انتظارا لمقابلة الحجاج في الصباح في غرفة تضيئها شموع خفيفه يسمع جلبة وضوضاء تصدر مع إدخال سجين جديد في الغرفة المجاورة.. تهدأ الأصوات.. يحدث نفسه)

سعيد:

أكتبْ بلافتة علَى مهدِ الطريقْ

هذا طريقٌ يتسعْ

ويلتوي

ولا يضيقْ

أظلُّ واقفًا

تدورِ آلة الفتنْ

بغير هدأة.. تُجَنْ

السجين: تظلُّ واقفًا

وفتنة تروحْ

وفتنة تَجيءْ

يَلُفُّكَ العراءُ كِسوَة

فتلمحُ امتهانَ محنتِكْ

في عينَ كلٍّ حالمٍ يَفيءْ

سعيد: عقاربُ الزمنْ

في دورة التصحيح تنتوي

اختيارَ من يُسيء

فتسحر الظنون دائمًا

في كَل ساعة بريءْ

والحقيقة مثل عادتها تغيب

مثلَ ما غاب التقى

في وقت إظهار النسيء

السجين:

جميعُ لاعبي الرهانِ يخسرونْ

جميعُ من دَمَت قدماهُ في الطريقِ يُدمن الطريقْ

ولا دقيقة تردُّ آخرَ السباقِ

حين ينتهونْ

سعيد:

أقمتُ دهرًا أستبين ملامحِي

ولا تبينْ

السجين:

وحين يندمون

يكون كرسي الخلافة في الوسطْ
ولا نكون
والجميعُ شاهرون حتفَهم
متقابلونْ
بغية الحياة
فكيف قد تكونْ؟
وكيف قد تهونْ؟
أتُشترى الحياة منحة
تهون وقتما يحبُّ الحاكمونْ
والرافضونْ
والمغرضونْ
تباع لحظة النزالِ
أولا بدون..
الموتُ في سبيلِ منْ؟
وإذا الحياة لم تكنْ
الموتُ لن يهدِي الذين تقاتلوا حياة
السيف كفرٌ بالحياة
إلحادُنا باللهْ
القتلُ كله حرامْ

القتلُ لن يَكُف يوما

عن أخذِ ما يبلُّ ريقَهُ

مادام كلُّنا في الصفِّ واقفونْ

في انتظارِ دورة من كرَّة الثأر المقيتِ

والانتقامْ

كيف يُجمعُ في الجنانْ

سيفان..

أهلكا فرصة النجاة

فإذا الذي لمْ يأتِهِ التماعُ ساعة الختام

بالتماعِ شهقة البريقْ

لن يبرحَ انتظارَ بردِ غيظِهِ

حتى يَلُفَّ ثأرَه

علَى رقاب الأبرياء

فالشهادة ابتغاءُ من يحبُّ الله

دون علمٍ بالطريقْ

فإذا يَضِلُّ تائها

يُضِلُّه الطريقْ

سعيد موافقا:

وإذا الذي في رقعة النزال يأتي دورُهُ

يريقني في لحظة الدمارِ
مثلما بالأمس قد أريقْ
السجين:
كانت هناك فرصة
لبدت تواري سوءة الإشفاقِ
والعطبْ
بين فورة التشفّي والغضبْ
بين مبتدَى الإخمادِ والتلظّي المحتطبْ
كانت هناك طرفة
من لمحة
من فرصة
يلوكُها الجميعُ غيرَ عابئينْ
ويتْفلون ريقَها
راضين حلقًا جفً وانتسبْ
لمرارة البغضاءِ في الخطبْ
سعيد:
كانت هناك فرصة
في سلسبيلِ الثورة الذي نضبْ
في سماعِ همسِ بعضنا
من دون ضجة ولا صخبْ

وفي اقتسامِ حلمِنا

وخبزِنا

وفي افتراشِ ظلِّنا

في لسعة الهجيرِ المرتقبْ

وفي استنادِ ظهرهم بظهرنا

نريح بعضنا

في لحظة التعَبْ

السجين:

هل ينزفُ الحسين

مرة أخرى

دماءَ العفوْ

في أرض تفورُ وتستعيرُ وتلتهبْ

امْ لَمْلَمَ الدجالُ

-في انتظاره الأزَلِي -

أفئدة الرجالْ

فينْصُبون لبَغيهِ

في كل ركنٍ في المدى

من لعنة الأشلاء

جاءَ الاحتفال بما سلبْ

* * *

(8)
تَابُوتُ القَتْلْ

(جندُ الحجاجِ يمسكون بسعيدٍ بن جبير ويأتون به إلى الحجاج حتى ينظر في أمره)

يدخلُ الحارس على الحجاج

الحارس: سعيدٌ يا مولايْ

الحجاج: سعيدٌ أخيرًا

الحارس: أأدخله عليك الآن سيدي؟

الحجاج: انتظرْ

سعيدٌ أخيرًا

سعيدُ بين يديك يا حجاجْ

ما لك يا ابن الثقفي؟

كنت أحسبُنِي سأفرحْ

ما لي حزين؟

كأن في العينين ملحْ

أين صولة غضبتي في البأس، أينْ؟

يتعرقُ الآن الجبينْ

النبضُ يزيد لضعفينْ

وكأن الطيرَ علَى رأسِي

تأكلُ من صبرِي جزءْ

تنسَي من غضبي جزءْ

تُمهلني أتخبطُ بين اثنين

سعيدٌ بين يديك يا حجاجْ

ما أنتَ فاعلٌ به في لحظة الحسابْ

بينَه وبينَكْ

خُطوة وبابْ

ماذا تنوي يا حجاج؟

كنتُ أعرفُ أنه ستصيرُ فيما بيننا

قطعٌ من الليل الظلومْ

لا نقومُ من اجترارِ شره

إلا كما المسوس حين يقومْ

أدخلوا سعيدْ

(يدخل سعيد مكبلًا في الأصفاد عليه علامات الإرهاق والتعب)

الحجاج: استهنت من حلمي عليكْ

فظللتُ دهرا أُمْهِلُكْ

وظننتَ أني أهْمِلُكْ

خُنتَ عهدي يا سعيدْ

سعيد: اخلع الأصفاد عنّي

الحجاج: لِمَ خُنتنِي؟

أودعتُ فيك من أعماق ثقتي

أولم أوَلِّكَ القضاءْ

سعيد: القضاءُ بأمرِ ربِ العالمينْ

الحجاج: أولم تبايعْ مرتينْ

سعيد: بين المبايعة المقيتة في لحيظات الثقة

وبين سحْبِ وعدها

ألفُ خطٍّ قد تجاوزَه جنودُك أيُّها الحجاج

أنت نفسُكْ

والخليفة لم تسِيرا في الخليقة مثلَ ما فعل الكبارُ الراشدونْ

والرجال المتقونْ

أين شُورى المسلمينْ

البيعة لم تكن حرة

جاءت علَى استحياءِ من يخفِ الخديعة في ثيابِ الصالحينْ

جاءت تمررُ نفسها في شكلِ زاد قد يموز الجائعين

الحجاج: جاءت بحق الله تدفع عن بلاد الله شرَّ الكائدينْ

سعيد: سرقت كما سرقت بيعْ

وصوامعْ

ومساجدَ في غفلة من أهل بلدتنا
حين راهنًا على أمنِ الرعية
ببضع كلماتٍ قصيرة
الحجاج: الثوارُ خائنونْ
يخونون خبز العشيرة
سعيد: الحكام قاتلونْ
يقتُلون الحلمَ في النفسِ البصيرة
أرهقت نفسك في اجتهادٍ خاسرٍ
ساويتَ ملك الحاكمينَ
بملْكِ ربِّ العالمينَ
أجْهدتنا في كِفَّتينْ
فما دخلنا البيتَ يومًا آمنينْ
البيعة الحمقاءُ مرة
ولو استطعتُ لعدْتُ يومًا للوراءْ
ونقضتُها في كلِّ يومٍ ألفَ مرة
الحجاج: أوهكذا العهد؟
التزامك بالجماعة؟
لا يستقيمُ الأمر بغيرِ طاعة!
سعيد: أنت من نقض العهود

ميثاق عهدك قد تلطخ بالدماء المهرقة

الحجاج: أوكنت أعصي للخليفة أمره

هل يستقيم الناس في الدنيا

إنْ تركناهم يذوقُون سكّرَ الأهواء

إنَّ سحرَ الملكِ مقتحمٌ شديدْ

يذهب الرأي السديدْ

إن تركناهم تغَشَّ الناسَ سوءاتٌ

ورانَت فوق أفئدة العبادِ مهالكُ التهديدْ

في كل بلدٍ مستقرٍ بالحديدْ

الحر لا يبدِّلُ في الوعودْ

والعبدُ يُغريه الوعيدْ

سعيد: أراك معتدًّا برأيكَ لا تحيدْ

الحجاج: أنهيتُ معركة الشكوكِ بداخلي مع نزفِ أولِ قطرة من دمِ منْ نقضَ الجماعة

ونطقت بالأمر المباشر من فمي

سعيد: أنهيتُ معركةَ اليقين بداخلي

حين جِئْتُكَ في القيودِ مكبلا

واستحلَلْتَ ما استحلَلْت مني

وعُمري

وحُرُمًا من دَمي

والسنين المرهقة

حين أهدرتُ السنين مناديا بالحقْ

وانتصرَ الحديدْ

هذه الأصفادُ ملكُكْ

فانزع الأصفادَ عني

أنت أولى بالعيون المُشْفِقَة

الحجاج: في كل مصرٍ فتنة

لن تبقِي شيئًا أو تذرْ

لست أملكُ هدأة لأناقش الثوارَ في الأمصارْ

المُدَّعِين على غرارِ النارْ

لو صبرتُ للحظة شَبَّتْ بثوبي

لاحترقتْ

و احترقَ الوطنْ

سعيد:

هل يُكَبُّ الناسُ في سجنِ الخليفة مجبرينَ

على الوجوهْ

إلَّا من أجلِ الوطنْ

هل يُكَبُّ الناسُ في أدنى جهنم خائبينْ

إلَّا حصادًا للسيوفْ

الخصمُ أنت والحكمْ

أتعاجلُ الناسَ اعتمادًا أنك السيافُ

أنك موفورُ الحقيقة والقوى

تَدَّعِي كذبًا بأنك كلُّ شيء

القاضي، يد الخليفة والجنود

والعالِم العلَّامة في أمور الشرعْ

جمعت أسوأ ما جمعتْ

من كلِّ شخص فالتمعتْ

و صَدَعْتَ بالحقِّ الكذوبْ

فما نَجَوْنا أو نَجَوتْ

الحجاج: دائمًا ما تخلطون الدين بالدنيا

ولو حُكِّمْتُ فيك بأمرِ ربِّي

لن أُمْهِلَكْ

سعيد: كيف تَقْدرُ أنْ تُواري سوأة السوءِ اللعينة

في سِتار الدينْ

الحجاج: أنتَ من تَستَّرَ أولًا

فلِمَ تلُمْنِي الآن

وتَجمعُ الفِتيان خلفكْ

تَغُرُّ منْ تَغُرْ
فيُصَدِّقُ الأطهارْ
والصغارُ الطيبونْ
يَحذون حذوَكْ
يُطْلقون علَي كافرْ
وأنني محارب لله
وأنني مجرمْ
يزعُمون بأنِ قتلاهم قيام في جِنان الله
ليسوا غرباءْ
وقتلانا أُسَارَى في جهنم
سعيد: صَدقوا وكانوا مثلَما علمتُهم فقهاءْ
يمشُون بين الناسِ بالمعروفْ
يساعدون فقيرَهمْ
والخيرُ في أعقابهمْ
الحجاج: بل اتخَذْتَ حياتَهم درعًا لطمعِك والوصول
سعيد: يتَحكَمُ الجندُ المراهِقُ في رقابِ الخلقْ
وتدعي كَذبًا علينا
أننا نسعَى كسعْيكْ
مثلما تسعَى بغيِّكْ

الحجاج: أنا وأنت
طرَفَا حبلٍ شُدَّ حتَّى كِدتَ تنجحَ بامتلاكِ نصيبكْ
فشددته منكْ
فوقعتَ من تَوِّكْ
فلا تَلُمني
بل لُمْ مقامرة تُدينكْ
أسْكنتها في عمقِ نفسكْ
سعيد: تدور في أرض الخطايا
تَستعين بتُرَّهاتِك
كي تقرر أنك الحقُّ المبينْ
الحجاج: أنا كذلكْ
أليس حولَ كرسِي المتين
الرعية والشيوخُ المؤمنون
سعيد: ينافقون ويعتدون
ويكذبون
ويكذبون
الحجاج: ويلك يا سعيدْ
لم تغيرْك السنونْ
ولا زلت تبدو تقيا غبيا

تلبس الثوب العنيدْ
خاب ظنِّي فيك يوما
سعيد: أصاب ظنِّي فيك يوما
صدقتَ أنك صاحبُ الملكِ العتيدْ
صدقتَ أنك صاحبُ العمرِ المديدْ
الحجاج: خاب ظنِّي فيك
اليوم جاء توعدي
ما كنت أكظِمُه سنين
حسابٌ شديدْ وشعبٌ طريدْ
إنك استحققت من غضَبي الوعيدْ
واستعدْ
واعتقدْ
كما تشاء أني مستبدْ
إنِّي ارتضيت
ما دمت حيا أجتهد
لا أستكين وأرتعدْ
سعيد: إلهي
أنت جاهُ المخبتين وأنت جاهي
أنت أرحمْ

أنت أعدلْ

أنت الصمدْ

لا تصلتْه

بعدَ اليومِ على أحدْ

لا تصلتْه

بعدَ اليومِ على أحد

***

(9)
تَابُوتُ الإرْثْ

(أمام بيتِ الحجاجِ قبل سويعاتٍ من موتهِ يجتمع بعض من الخلق في انتظار ما سيحدث..

اثنان يتكلمان بصوتٍ خفيض بين الجموع وينظرون ناحية الركن القريب حيث يقف شاب يرتدي زيًّا غريبًا..)

أحدهما للآخر: مِنْ يا تُرَى هذا؟

يَلْبسُ غيرَ ما نلبسْ

سَمْتُهُ مِنْ غَيْر بأسْ

غريبْ!!

جاءَ مِنْ أيْنْ؟

كَلامُهُ عجيبْ

يَنظرُ في الوُجُوه

كمَا لوْ كَان يعرفُنا جَميعًا

أو تربَّى بينَنَا

دعْنَا نَرَى ما عِندَهُ

ماذا يقول؟

هيا بنا

الآخر: لا بأسْ

هيًّا بنا فاليومُ يَزْخَرُ بالعَجَائبْ
من كان يومًا قد يفكرُ أنَّ هذا القصرَ مثلَما أنهى حياة الكثيرْ
يجيءُ يومٌ تَخْفتُ الأصواتُ فيهْ
لا ينفعُ الصَخبُ الشديدُ في بلاطِهِ ولا يضِيرْ
يتحلَّق حول الغريب أربعة رجالٍ في زاوية ينصتون كما المشدوهين
الغريب: دُنيا تَمُرُّ علَى الكرامِ مرورَ عابرْ
دنيا تَمُرُّ علَى اللئامِ مرورَ عابرْ
الكل يفنَى تاركًا في البيتِ إرثْ
ما كان يومًا مُكْترِثْ
ورثَ المتاهة من وَرِثْ
ثوبًا مِنَ التاريخِ رثْ
ماذا تَركْتمْ للبنينْ؟
خافَ الذين تَقَاسَموا فتنَ الزمانِ من الألمْ
عَلَّمُوها كيْف لا تفنَى
كيْف تَنْفثُ سمَّها في كلِّ أرحامِ النساءْ
علَّمُوها كيفَ تمشِي بين أسماعِ الرجالْ
بكل أشكال النميمة
تبثُّ خبثَ المرجفينْ
تهدِي النهايات الأليمة
دائمًا ما ينتهِي نفسَ النهاية من بدأْ

الآخرون في سجون الآخرين

المُدَّعون في سجون المُدَّعينْ

الكاذِبون في سجون الكاذبينْ

الصامتون لا يحاولونْ

يَموتون أيضًا في هدوءْ

يُورِّثون صمتَهمْ

نَقَشُوا على جِدارِ الصمتْ

مِن زمنٍ وصَايا مُستديمة

ينْحتون إرْثَنا

بأصواتٍ رخيمة

يلتفت إليهم ويسألهم: ماذا تركْتُم خلفَكُم بعدَ المواتِ

تورثوه؟

أحدهم: مالًا لن ينفدْ أبدا

الغريب: وأنت؟

ثانيهم: بيتًا وطينًا وطريقَ بيعٍ للتجارة عُبِّدا

الغريب: و أنت؟

ثالثهم: سؤددًا، سلطانًا، طريقًا في البلاطِ ممهدا

الغريب: وأنت؟

رابعهم: حظوة عندَ الأمير وفي القضاءْ

الغريب: بل تركتم فتنة الدنيا لتلعب لُعبة الإقصاء

في أبنائكمْ

وبنيهمْ

وبني بنيهمْ

أورثتموهم ما يُضلُّ الصالحينْ

يُغري البنين المكتفينْ

يُدلي بدلوٍ ليس يُغني من ظمأْ

البئرُ تملؤه الدماءْ

البئر تملؤه الدماءْ

البئر تملؤه الدماءْ

(يتركهم بعينين ذاهلتين ويمشِي بعضَ الخطوات فيلحقه أحدهم مناديا)

يا فتى بالله من أنتْ؟

لا أفهمكْ

مِن أين جِئتْ؟

كيف تعرفُ ما نُورِّثُ للبَنينْ

الغريب: أنا البنينْ

أنا إرثُكم في العالمينْ

أنا السنون الغابراتْ

والأرحامُ تُنجِبُ من لدنِّي من قتلتمْ

كي يُعيدوا نفسَ وقفتِكمْ

وتَمْتَمات شِفاهِكمْ

وسكوتِكمْ

وملامِكمْ

وصلاحِكمْ

وفسادِكمْ

كي يُعيدُوا غمد خنجرهم بنفس صدور قتلاكم

أنا الكرسي متكئ على ذِكْرَى تَعَنُّتِكُمْ

لا يستقيمُ لأي أحد بعدكمْ

أنا ابن هذه القرية

المكتوبة المطوية المخفية الحمقاءْ

الظالمون أهلها وقتَ اختبارِ الابتلاءْ

أنا مِن شَدَدْتُ الرحلَ في كتبِ الحكايات القديمة

والنميمة

ما يُطْلِقون علَى مُسَمَّاها

صَحائِفَ التأريخْ

فرَجعتُ مِنها خَاليًا صفرَ اليدينْ

لم يَبْقَ منها في مُخَيلَتِي

سِوى صوتِ اصطكاكٍ للسيوفِ

مع التوجعِ والصريخْ
في كلِّ بيتٍ دُرْتُ فيه وجدتُ مكلومًا حزينْ
في كلِّ ركن بتُّ فيه
أشمُّ رائحة الحسيْنْ
لمْ أستفدْ شيئًا يُهَوِّن رِحلَتِي
سوى خُفَّي حُنيْنْ
سوى خُفَّي حُنيْنْ
أحد الواقفين للآخر: أفهمتَ شيئًا؟
أوعيتَ ماذا كان يقصدْ؟
الثاني: لم أعِ شيئا
غيرَ أن الفتنة الشنعاءَ تبلعُ كلَّ هذا المشهدْ
الفتنة الحمقاءُ تَسَعَّرتْ
ولهيبُها في الأفق يَتَّقِدْ
الأول: بموتِهِ سيكون إرجاعُ الصلاحِ إلى البلادْ
الثاني: أيكون إرجاعُ الصلاحِ بتركِ جلادٍ يموتْ
سيَجِيئُنا مِنْ بعدِهِ
ألفُ جلادْ
وكيف إذا تُرِك العبادُ للعبادْ
سيأكلون بعضهمْ

الأول: لا لنْ يكونْ
الناسُ ينتظرون لحظة يتَبَسَّمون ويضْحَكونْ
ويأمنونْ
لن يَسْتَخف بعضُهم ببعضِهمْ
قدْ أُرْهِقوا في رحلة الغضبِ الطويلْ
الثاني: بالله تَعْقلُ ما تقولْ
الناسُ لا يُرضِي مطامعهمْ
غير سوطٍ مستقيلْ
في زجْرهِ الشرُّ الوبيلْ
الأول: بموتِ الظالمين يَعُمُّ في الأرجاءِ خيرْ
الثاني: لا ينتهي ظلْمٌ بموتِ الظالمينْ
سيظلُّ في ظلِّ الضَّحايا وشْمَة مِن شرْ
يَتَحَيَّنون الفرصة المثْلَى
يَتَصَيَّدُون الساعة كي تلائمَ
ما نَوُوا في السرْ
كي تناسبَ ما تلظَّى في الصدورِ
علَى ضفافِ القهرْ
الأول: إنْ ماتَ سيافُ الإمارة
حتمًا يزولُ الخوفْ

حتمًا يموتُ السيفْ

الثاني: السيفُ نائمٌ بجوارِ كرسي الإمارة لا يموتْ

الخوفُ تَغْذية السيوفْ

دائها ودوائها

الخوفُ في صدرِ الخليفة

الخوفُ في صدرِ الرعية

السيفُ مسْطرة خفية

تسْتقيمُ بعدلِها النفسُ الضعيفة

الخوفُ وجْهَان للإمارة

والسيفُ ميزان الإمارة

والعدلُ... لا أدري

العدلْ؟

العدلُ يلبسُ من كليْهما إزارهْ

الأول: أوَيستَقيمُ العدلُ في بلدٍ تَوشَّحَ بالسيوفْ

تخريفْ

غدًا يموتُ السَيْفُ والسَيَّافْ

وتَرْجعُ الدنيا كمَا كانتْ بَهيَّة

الثاني: متَى كانتْ بهيَّة

أبعد عصرِ الفتنة الكبرَى سترجعُ

مثلما كانتْ بأيام النبوة
العدلُ موصولٌ بعرْشِ اللهِ
والوحْي المبينْ
ونحن قومٌ نستهينْ
بأي شيْءْ
دائمًا لنا مخرجٌ بالوحْي والتنزيلْ
لا يُجْهَدُ القومُ الطغاة
ما دَام عندَ مشايخِ السُّلطانِ فيْءْ
الأول: هنا منْ لمْ يُغَرْ
ولنْ يُغَرَّ بالدنيا ليومِ الدينْ
ولا بدرهم السلطانِ والعزِّ المقيمْ
هناك خير في العبادِ يَظلُّ مكْنونًا بقلبِ العارفينْ
استعذْ باللهِ منْ شرٍ رجيمْ
الثاني: عذنا به
عُذْنا بمَنْ جَبلَ العبادَ علَى الإنابة
أعوذُ باللهِ العليمْ
أعوذُ باللهِ الكريمْ
أعوذُ باللهِ العظيمْ
أعوذُ باللهِ العظيمْ

* * *

(١٥)
تابُوتُ المَوْتْ

(الحجاجُ يجلسُ حاسرَ الرأسِ ملتحفًا بغطاءٍ بجوارِ نافذة قصره ساعلًا من شدة المرض شاعرًا باقترابِ لحظة النهاية)

أنا الحجاجُ

طلَّاع الثنايا

الآن يُخلِعُني التوعكُ قبضتي وعمامتي

حصيلة السنوات تُنثرُ من يدي

يستيقظُ الآن السؤالْ

ولطالما أغمدتُه سيفي بساحات النزالْ

يتجردُ الحجاجُ من نصفِ الحياة

بينما الحجاج حي لا يزالْ

هل يدور العمرُ دورتَه الضعيفةَ ثانية

في لحظة البدءِ اختيارٌ دونما اختيارْ

كيف أفعلُ حينها؟

إن عادَ تقريرُ المسارْ

أمشي برأسٍ حانية

أبكي كما يبكي الضعافُ المرغمون

في كل دار خاوية

أأدور في فلك الخلافة مثلما أنهيت توا دورتي؟

أعطيت للناسِ الأمانَ بثورتي

أهديتُهم عمرا مديدا

- للذين يوافقونْ

فقط الذين يُوافقونَ

ويَصْمتون -

هل كنتُ حقًّا أستطيعُ الصمْتْ

إذا ما سمعتُ الزجرَ قُمتْ

إذا ما أزاحوني يمينًا من طريقِ الجندْ

فكأنني ليلٌ سكتْ

واستراحَ الجندُ منِّي

واسترحتْ

هل كان مثلي يستعين علَى الحياة بقُوتِ

يومٍ كالعوامْ؟

قُوتي الدوامْ

لا أستطيعُ الانتظارَ كمثلِ كلِّ الخائفينْ

أو أستكينْ

أو ألعبُ الدوْرَ اللعينْ

مثل الذين قتلتُهم وصلبتُهم في مدخلِ الطرقاتْ

أأكون منهم واحدًا؟

يلقى النهاية ساجدًا

يختار بين أمر مُرْ

وأشَرٍّ شَرْ

اثنان بينهما الهلاك المستقرْ

أم ألزَم الصمتَ

اعتمادًا أنَّ أمنَ الناسِ يكمنُ في الوهنْ

في اللينْ

في الخبزِ المقددْ

في التزام الدارْ

في الجبن المطيعْ

أوَكنتُ حقًّا أستطيعْ

رجعت إليك الوسوساتْ

فاتَ وقتُ اللومِ يا حجاجُ فاتْ

كحلتَ من بطشِ الخلافة مقلتيكْ

حميتَ كرسي الخلافة وافتديتْ

أضعتَ عمرًا ما احتميتْ

ولا اهتديتْ

– كل نفس ذائقة الموتْ –

أأموتُ مثلَ العامة البلهاءِ فوقَ سَريرِ ضعفْ

– يُقبرونى بين لحدِ الخوفْ –

لا أخافُ الموتْ

كيف يخيفُني من كان خلّي والخليلْ

أيخونُنِي في لحظة المرضِ الثقيلْ

أيعقلُ أن أرى وجهَ الخلائقِ

والثكالى واليتامى؟

تملأُ كلَّ أوردتي وريدًا تلوَ آخرْ

كيف يغلي العمرْ

فورة من بعد فورة

وإذا به بخرٌ عجوزٌ فوقَ بخرْ

والموت

الموتُ الذي استعملتُه في كل وقتٍ

لم أأخرْ فيه شبرْ

أعملُ الموتَ السخي بقبضتي

في كل ركنٍ من ربوعِ الأرض

الموتُ في بعضِ المواطنِ

هيبة

هبة

نجاة للسوادِ الأعظم

من دون أن أقسمْ

كان المعين لمدة

عشنا سويًّا نرسمُ الوطنَ الكبيرْ

من أجلِ أن يحيا الكثير

لا يفهمونْ

أترانِي مستبدًّا ظالمًا سفاح؟

لم أسفكْ الدم مرة إلا بحقْ

– بل سفكت –

لم أجلدْ الضعفاء يوما

– بل جلدت –

لم أقتلْ شبهة أبدًا

– بل قتلت –

أتردُّ لي الآن الإجابة

في نهايات الطريق

بعدما كنَّا سويا

زينتَ لي عرشَ الإمارة والبلادْ

قد كنتُ أفعلُ ما ارتضينا وارتضيتْ

يا ليتك ما سمعتَ ولا فعلتْ

الآن

ليس وقتٌ للمعاتبة اللدودْ

إن كنتَ بالفعل أسأتْ

فليس وقت معاتبة إن تستطعْ

أو كنتَ قد أحسنتْ

فلا مجالَ للفزعْ

يا ربْ

يا ربْ

الملكُ لكْ

إنما أنا تائه في بحرِ جهلي

أدَّعي مثلَ الكثيرِ الحكمة

أرتضِي منهم مناداتي القوي

أنا بين نفسي لا أخبئُ غيرَ صدِّيقٍ تقي

لكنني لا أنتوي إظهارَ بعض كرامة

لا أخَلِّي بينَهُ والناس

كيف يمشي حاسرًا عن ضعفهِ في السوق

كيف يحكمُ موطنًا بالرفقْ

كيف يمشي الناسُ غيرَ متكِئِين على الحذرْ

كيف يُؤتمن البشرْ

الحقُّ أولى أن يعمَّ وينتشرْ

وأنا اتبعت الحقْ

يا رب

قد حَلفوا علي بأنني لا بُدَّ مثواي الجحيمْ

أيحلفون على العفوْ

أيحلفون على الكريمْ

يا رب أعرفْ

يا رب لا اعرفْ

يا رب حِرتُ وزاد من بؤسي

فراشُ ضَمَّ ضعفِي والمَرضْ

قد جِبْتُ كلَّ الأرض

مهددًا وطامعًا

معذبًا ومقاتلًا

كيف انتهيتُ الآنْ

مطويًّا طريحاً في الفراشْ

أنا الذي فرشُوا طريقي بالجنودِ

وبالدعاءْ

بالسلطانِ والعمرِ المديدْ

أقتلتُهُ؟

أم كان قَتلِي عين قتلِي لسعيدْ

ابنُ الجبير نال مِني

ما نِلْتُ منه

نال مِني ألفَ مرة

واسْتحالَ الكونَ عيْناه الوديعتان

نصفَ غامضة صريعة

لن أسْتحِي في العمرِ من عيْنين فقدتا نُورَهما

جرَّاءَ عصياني وبطْشَ ملامتِي

مثلما استَحْيَيْتُ من عيني سعيدْ

الآن يَصْرَعُنِي سعيدْ

ما لي وكرسي الخلافة والدماءْ

ماتتْ علَى عينَي سعيدٍ كلُّ مطامِعِي وملاحمِي

واختباءُ العامة الضعفاءِ منِّي

واجتماع الأقوياء بجلْدِ ظَهري

العامةُ الضعفاءْ

آهٍ من أولئكْ

إنهم يقفون في الليلِ المديدْ

يسترون عيونَهم منِّي وأسترُ مغنمِي

أسترُ حسْرتِي

ورعْشَة مِعصَمِي

يقفون مشدوهِي العيون

ما بين كارهٍ

وحاقد وخائفٍ كسيرْ

ما بين شاكر ومقدرٍ وحسيرْ

لا يعلمون أنَّنِي قد بتُّ ليلتِي

أسيرْ

كلُّ هذا ما جَنَت قدماي

في العمر المريرْ

كلُّ هذا ما ضربتُ بطول مملكتِي

وعرض الأرض

مبتغيًا صلاح المفسدينْ

أوكان عبد الله؟

أوكان يومًا مفسدًا حقا سعيدْ؟

أوكان آلافُ الذين تهَجَّدوا بشهادة التوحيدْ؟

أوكان أبناء الصحابة؟

أوكان حقًّا أن أريقَ دماءَ أحد يعترضْ؟

ماذا أردتِ الآن يا نفس تتوهين؟

الهروبَ أم اللقاءْ؟

في وثبة الملكوتِ يُمْهلُني القضاءْ

كم مرة أُمْهِلْتَ في أرض السبقْ؟

في حضْرَة الموتِ المعتق في يدِي

في حضرة العشرين عاما أهتدِي

أو أرتَدِي ثوب الضَلالْ

كم مرة خضَّبْتُ وجْهَ الأرض بالحيواتِ صَرْعَى؟

وقتما ارتفعَ الأذانْ

أضللتُ قبلَ الآنْ؟

أعصيْتُ قبلَ الآنْ؟

أصَلُحْتُ قبلَ الآنْ؟

أقَتَلْتُ قبل الآنْ؟

أقُتِلْتُ قبلَ الآنْ؟

أقَتَلْتُ قبلَ الآنْ؟

أقُتِلْتُ قبلَ الآنْ

أقُتِلْتُ قبلَ الآنْ؟

أقُتِلْتُ قبلَ الآنْ؟



تَوابيت الحجَّاج

إسلام مؤنس

يسمَعُ تكبيراتُ الله تحلُ محلَ الرمحْ

ومحلَ السيفْ

ومحلَ الكرهْ

ومحلَ الصهدِ المتبقي في أصل الرملْ

أتكبيرات الله ورحمتُه تتبدَى أبدًا من قلب الغلْ؟

أتكبيراتُ الله تحاصِرُنا بالجمرِ الناشبِ في لحمِ الألسنِ غضبتهُ؟

أتكبيراتُ الله كعزرائيلْ؟

أتكبيراتُ الله تصيرُ الحدَّ الفاصلَ بين اثنين؟

أن تصبحَ قاتلْ

أو تصبح في التوْ قتيلْ

تكبيرات الله تنازل عنها الناسْ

بدلًا من فيضِ الرحمة والإجلالْ

في آيات الترتيلْ

تكبيراتُ الله الآن تغادرُ أفواهَ الناس على هيئة سجيلْ

